الخليفة المسترشد بالله العباسي

عادل محي الدين الآلوسي
جامعة بغداد - كلية القانون والسياسة

هو المسترشد بالله ابو منصور الفضل بن ابي العباس احمد بن المستظهر بالله[١] ، ولد في ربيع الاول سنة خمس وثمانين واربعمائة[٢] . وقيل ثامن عشر شعبان من يوم الاربعاء سنة ست وثمانين واربعمائة[٣]، وامه أم ولد ، وقد خطب أبوه له بولاية العهد ونقش اسمه على السكة في شهر ربيع الاول سنة ست وثمانين واربعمائة مدة ثلاث وعشرين سنة قبل توليه الخلافة . سمع الحديث من ابي القاسم بن بيان وعبدالوهاب بن هبةالله السبتي وروى عنه محمد بن عمر بن مكي الاهوازي ووزيره علي بن طراد الزينبي واسماعيل بن طاهر الموصلي ، وكان يلقب حينئذ بلقب (عمدة الدنيا والدين) وقد تنسك في شبابه ولبس الصوف وانفرد في بيت العبادة ببغداد . وقد كانت له حظوة كبيرة لدى ابيه الخليفة المستظهر بالله لما امتاز به من صفات لم تكن موجودة عند اخوانه الثلاثة، ابو عبدالله محمد وهو المقتفي ، وابو طالب العباس ، وابو الحسن الذي تأخر في مبايعة المسترشد بالخلافة[٤] .

كان المسترشد بالله وكما وصف ، فارسا قاد الجيش بنفسه ، طموحا نزع للاستقلال والتخلص من السيطرة السلجوقية ، محبا للثقافة

درس الحديث على يد اشهر علماء عصره . يتعاطى الشعر من ذلك قوله(٥):

انا الاشقر المدعو بي في الملاحم ومن يملك الدنيا بغير مزاحم

مما يدل على انه كان اشقر اللون(٦) . فصيحا بليغا حسن الخط قال عنه ابن الاثير « ولقد رأيت خطه في غاية الجودة ورأيت اجوبته على الرقاع من احسن ما يكتب وافصحه »(٧) . ذا هيبة وجلال ووقار يحترمه عدوه قبل صديقه ، مدحه ابو المظفر الهاشمي بعد ان فرغ من احدى خطبه في العيد قائلا :(٨)

عليك سلام الله ياخير من علا
على منبر قد حف اعلامه النصر
فلله عصر أنت فيه امامنا
ولله دين انت فيه لنا الصدر

ومدحه وزيره جلال الدين الحسن علي بن صدقه بقوله :(٩)

وجدت الورى كالماء طعما ورقة
وأن أمير المؤمنين زلاله
وصورت معنى العقل شخصا مصورا
وان امير المؤمنين مثاله
ولولا مكان الدين والشرع والتقى
لقلنا من الاعظام جل جلاله

ويستدل من شعره انه كان شديد الاعتزاز بنفسه وبشجاعته على وجه الخصوص من ذلك قوله :(١٠)

ستبلغ ارض الروم خيلي وتنتضي
باقصى بلاد الصين بيض صوارمي

وقوله لما اسر بيد السلاجقه :[١١]

عجبا للاسد ان ظفـرت بهـــا
كلاب الاعادي من فصيح واعجم
فحربة وحشي سقت حمزة الردى
وموت علي من حُسام ابن ملجم

ومع كل ما احاطت به من منازعات وحروب فقد احتفظ المسترشد بشخصية وهيبة وعلو منزلة وسلطة دينية قلما تتوفر عند غيره من الخلفاء الذين سبقوه من عهد المنتصربالله[١٢] ، « ضبط امور الخلافة ورتبهـا على احسن وجه واحيا رسم الخلافة ونشر غظامها وشيد اركان الشريعة وطرز اكمامها ونظم الجيش العباسي وباشر قيادته بنفسه »[١٣] .

وقد حاول ان يعيد مجد اهل بيته بالتخلص من سلطة السلاجقـة وتوحيد بلاده بالقضاء على كل الامارات سواء ما كان منها في الحلة او الموصل او واسط ولكن الاقدار حالت دون تحقيق ذلك[١٤] .

خلافته

بويع المسترشد بالله بالخلافة في يوم الخميس الرابع والعشرين من ربيع الاخر سنة اثنتين وعشرة وخمسمائة للهجرة بعـــد وفاة ابيـــه المستظهر بالله بثمانية ايام[١٥] ، وقد بايعه اخواه وعمومته بنو المقتدي بامرالله والفقهاء والقضاة والائمة والاعيان وارباب الدولة ولم يشذ عنهم الا اخوه ابو الحسن، وكان المتولى لاخذ البيعة قاضي القضاة ابوالحسن علي بن محمد الدامغاني وكان نائبا عن الوزارة وقد اقره المسترشـــد عليها[١٦] .

ذكر صاحب المنتظم نقلا من خط ابي الوفاء بن عقيل ، « انه لما ولي المسترشد بالله تلقاني ثلاثة من المستخدمين يقول كل واحد منهم قد طابك امير المؤمنين فلما صرت بالحضرة قال لي قاضي القضاة وهو قائم بين يديه ، مولانا امير المؤ ثلاث مرات فقلت ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ثم مددت يدي فبسط لي يده الشريفة فصافحت بعد السلام وبايعت فقلت ابايع سيدنا ومولانا امير المؤمنين المسترشد بالله على كتاب الله وسنة رسوله وسنة الخلفاء الراشد ••••• »[١٧] وكان عمره ثلاثا واربعين سنة وثلاثة اشهر وثمانية ايام ومدة خلافته سبع عشرة سنة وسبعة اشهر[١٨] .

خلافه مع اخيه ابي الحسن

اجمع كل ابناء المستظهر واقاربه وخاصته على بيعة المسترشد بالله الا اخوه ابو الحسن الذي استغل انشغال الناس بمراسيم عزاء ابيه وبيعة اخيه وركب تحت جنح الظلام في سفينة ومعه ثلاثة انفار قيل ان احدهم كان هاشميا من حراس قصر التاج[١٩] ، ومضى الى المدائن ومنها الى الحلة مستجيرا بصاحبها دبيس بن صدقة المزيدي الذي علم منه وفاة المستظهر بالله وبيعة المسترشد للخلافة ، فرحب به دبيس واكرمه وخصص له دارا تليق به ، تسمى بدار الذهب[٢٠] وبالغ في التقرب اليه حتى انه كان يدخل عليه كل يوم ويقبل الارض بين يديه ويستعرض حوائجه ، فلما علم المسترشد بالله خبره ، اهمه ذلك واقلقه فارسل نقيب النقباء ابا القاسم شرف الدين علي بن طراد الزينبي ليأخذ البيعة على دبيس ويستعيد اخاه ، فاعطى دبيس البيعة ولكنه اعتذر عن تسليم الامير ابي

الحسن الا اذا رضى هو بذلك ، عند ذلك دخل النقيب على الامير ودعاه باسم الخليفة فقال الامير انه بخروجه الى الحلة لا يضمر عداء لاخيه وانما خوفا من ان يصاب بمكروه بسبب خصومة له مع اخيه قبل وفاة ابيه(٢١)، وانه مستعد للعودة على شرط الامان والضمان وتكفل دبيس باصلاح الحال بنفسه والمسير معه الى بغداد ولكن انشغال دبيس بحرب البرسقي أخر ذلك . لم يرض هذا الحل الخليفة فقد نحى الوزير علي بن طراد على اثر عودته كما قبض على صاحب المخزن ابن طاطر ابن الخرزي وعلى ابن كمونه وابن غيلان القاضي واخرين بتهمة التواطؤ مع الامير ابي الحسن ، مما يعطي انطباعا على ان الخلاف بين المسترشد واخيه قد تعدى كونه خلاف بين اثنين بل اصبح مشكلة تضاف الى جملة المشاكل التي واجهها المسترشد بالله .

وفي سنة ثلاث عشرة وخمسمائة سار الامير الحسن الى واسط وكثر اتباعه وملكها وجبى خراجها فاغاض ذلك المسترشد وخطب لولده ابي جعفر المنصور وعمره حينئذ اثنتا عشرة سنة بولاية العهد(٢٢) وبعث ابن الانباري كاتب الانشاء الى دبيس يأمره بمطاردة اخيه الحسن بعد ان ترك الاخير الحلة ، فامتثل دبيس للامر وانفذ صاحب جيشه عنان في جمع كثير فلما سمع الامير ابو الحسن بذلك رحل من واسط ليلا فضل الطريق مع عدد من خواصه وقد اشرف الامير على الموت لشح الماء وشدة القيظ وهم في شهر تموز لولا ان ادركه نصر بن سعد الكردي الذي سقاه الماء ونهب مالديه من المال والاحمال وحمل به الى دبيس وكان في النعمانية الذي بعث به الى المسترشد فكافأه بعشرين الف دينار وكانت مدة خروجه الى ان اعيد احد عشر شهرا(٢٣) .

علاقة الخليفة بالامارة المزيدية

تكونت هذه الامارة في الحلة وتعاقب على ولاية امرها المزيديون من بني اسد وقد تمتعت هذه الامارة بنوع من الاستقلال الذاتي(٢٤) . وفي عهد المسترشد كان صاحبها دبيس بن صدقة بن مزيد الاسدي وقد انصف هذا الرجل بمقدرة ودهاء وسرعة تخلص قلما تتوفر في شخص غيره فبدهائه ومراوغته استطاع ان يحفظ لهذه الامارة قوتها وبقائها وكانت له اطماع تتعدى امارته وقد حاول ان يستغل خصومات السلاطين مع الخليفة العباسي وهذا ما يفسر لنا ازدواجية ولائه للسلطان السلجوقي مرة وللخليفة العباسي مرة اخرى .

ان شخصية دبيس فريدة من نوعها ، عاصر الخليفة المسترشد حتى مقتله مرة له ومرة عليه ، فعندما تولى المسترشد بالله الخلافة بايعه دبيس على الطاعة ، ومع التجاء الامير ابي الحسن اليه الا ان علاقته بالخليفة ظلت حسنة الى ان سلم الامير ابي الحسن واقعد في الدار العزيزة ، ويظهر ان دبيس اراد ان يجعل من الامير ابي الحسن رهينة عنده يهدد به الخليفة كلما اراد الوصول الى شيء يطلبه او امل يبغي تحقيقه ، فقد طلب من الخليفة ان يسلمه الامير الحسن لما ساءت احواله وهو في الحبس بحجة ان ذلك جزء من الاتفاق الذي بموجبه تم تسليمه وقد رفض الخليفة هذا الطلب فاساء ذلك دبيس حتى انه كسر المنبر كي لا تقام عليه جمعة ولا يخطب فيها لاحد(٢٥) .

ظهرت نوايا دبيس التوسعية سنة ٥١٤هـ عندما انتصر السلطان محمود على اخيه الملك مسعود فقد عاث دبيس في الحلة وما جاورها فسادا وتخريبا(٢٦) وتمادى في تحديه للخلافة والسلطنة السلجوقية فسار

الى بغداد يريد فتحها ويطالب بثأر ابيه[٢٧] فاغضب ذلك السلطان محمود الذي قدم الى بغداد ، وقد حاول دبيس ان يلعب لعبة مزدوجة ارسل زوجته ابنة عميد الدولة ابن جهير يطلب الصفح وفي الوقت نفسه استنفر عسكره للمسير الى بغداد ، فسار اليه السلطان وكان دبيس قد ترك الحلة الى الازبر وتبعه الجيش السلجوقي الذي يقوده يرنقش الزكوي الذي اتفق مع دبيس على الصلح على ان يرسل دبيس اخاه منصور رهينة[٢٨] .

لم يعجب هذا الاتفاق الخليفة الذي راسل السلطان محمود في ابعاد دبيس وتعين البرسقي شحنكية[٢٩] بغداد والعراق واستدعي البرسقى من الموصل والتقى بجيش دبيس عند نهر يشير شرقي الفرات فانهزم عسكر البرسقي ودخل دبيس بغداد طالبا من الخليفة العفو والصفح ، ولكن دبيس كعادته قلب ظهر المجن على المسترشد بالله وراسله مهددا ومتوعدا ومطالبا باطلاق سراح اخيه منصور ومحتجا على استيزار أبي نصر احمد بن نظام الملك ، وبالغ في الوعد ولبس السواد وجز شعره وحلف لينهبن بغداد[٣٠] فثارت ثائرة الخليفة فاستدعى العسكر وكان تعداده ثمانية آلاف فارس وخمسة آلاف راجل وعبر به دجلة والتقى بجيش دبيس وكان تعداده عشرة الاف فارس واثني عشر الف راجل بينهم البغايا والمخانيث بالملاهي والزمور والدفوف[٣١] . وعندما دارت رحى الحرب الضروس انهزم دبيس وعبر الفرات فرأته امرأة عجوز وقد عبر فقالت له دبير جئت فقال دبير لم يجيء وسار الى البصرة ومنها الى قلعة جعبر[٣٢] .

التجأ دبيس هذه المرة الى الملك طغرل بن محمد بن ملكشاه مستغلا

خلافه لاخيه السلطان محمود واتفق معه على المسير الى بغداد ومعهم يرنقش الزكوي بخطة ان يتولى دبيس والزكوى الحرب في حين يتقدم طغرل نحو بغداد لفتحها ، ولكن مرضه الشديد وغزارة الامطار التي احدثت سيولا مدمرة وتعب الجند من كثرة المسير ونفاذ المؤنة حال دون ذلك ، وعند الدسكره فوجيء دبيس واصحابه بالخليفة مشرفين عليه فبادر لتوه قائلا انا العبد المطرود فليعفي امير المؤمنين عن عبده وكرر ذلك فهم الخليفة على العفو عنه لولا نصيحة الوزير جلال الدين بن صدقة الذي ثناه عن هذا الرأي ، ومضى دبيس وطغرل الى السلطان سنجرالذي سجنه تقربا الى الخليفة المسترشد الذي صفح عنه بوساطة من السلطان محمود ، ولكن دبيس استغل مرض السلطان وهو في بغداد وسار الى الحلة وملكها بعد ان هرب منها بهزور شحنة بغداد فاغضب ذلك الخليفة والسلطان معا ، فراسلهما دبيس طالبا العفو وقدم للسلطان هدايا بلغت ثلثمائة حصان منعلة بالذهب ومائتي الف دينار(٣٣) ، ولما لم يفلح في مسعاه هرب الى البصرة ومنها الى بلاد الشام حيث اسره تاج الملك بوري صاحب دمشق وسلمه الى عمادالدين زنكي صاحب الموصل الذي اتفق معه على المسير الى بغداد ٥٢٦هـ(٣٤) ، فخرج اليهما المسترشد وهزمهما عند عقرقوف وعاد دبيس مرة اخرى محتميا بالسلطان سنجر •

شهد دبيس اخر معارك الخليفة المسترشد بالله مع السلطان محمود وقد آتمنه السلطان وارسله الى الحلة ولكن دبيس لم يكن مخلصا حتما للسلاجقة لانه كان يعمل سرا على تقويض سلطنتهم والاتفاق مع اعدائهم وافشاء اسرارهم ومن هذا انه لما كتب السلطان مسعود الى عماد الدين زنكي صاحب الموصل يستدعيه للفتك به ، راسل دبيس زنكي سرا

وحذره من مغبة المجيء واعلمه بالامر المبيت ضده وقد انكشفت فعلة دبيس فارسل اليه السلطان وقال له هذا جزاء من يخون مولاه وضرب رأسه ولما بلغ زنكي ذلك قال « فديناه بالمال وفدانا بالروح »(٣٥) .

وبذلك اسدل الستار عن دبيس السياسي المراوغ الذي اشغل الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية مدة تقرب من العشرين سنة .

محاولات المسترشد الاستقلالية

كانت العلاقة بين خلفاء العباسين والسلاجقة مغايرة للعلاقة التي كانت بين هؤلاء وسلاطين البوبهين ويرجع ذلك الى التوافق المذهبي فهؤلاء وأولئك يدينون بالمذهب السني مما يسر التعاون بين الجانبين ومما دفع بالسلاجقة الى اجلال الخلفاء واحترامهم أضافة الى بعد السلطة السلجوقية عن مركز الخلافة بغداد في حين ان البويهين استقروا فيها ، بيدهم الحل والعقد وما للخليفة الا الاسم والقدسية الدينية ، واكتفى السلاجقة بمن يمثلهم لدى الخليفة وعينوا لهذا المنصب الشحنة وقلما يأتي السلطان الى بغداد بزيارة مجاملة او عند حدوث مشكلة تتطلب حضوره . وفي اعتقادي ان السلاجقة اكثر لينا وتسامحا من البوبهين الذين كثيرا ما يوصفون بالقسوة والعنف وقد يكون مرد ذلك ان السلاجقة عاشوا في زمان تلى زمن البوبهين ووجدوا في مجتمع اكثر تمدنا وتطورا ، وبفعل ذلك اكتسب هؤلاء خبرة وتجربة وتجنبوا اخطاء سبق ان وقع فيها غيرهم .

لقد اثرت بداوة السلاجقة في تعصبهم الشديد للاسلام بعد اعتناقهم له كما اثرت في ميلهم المفرط الى أهل السنة والجماعة بعد اتباعهم للمذهب السني ومن هنا كان تصرفهم تجاه الخلفاء فكانوا يظهرون لهم

الولاء ويدينون لهم بالطاعة والاحترام[٣٦] .

تولى المسترشد بالله الخلافة والسلطنة السلجوقية بيد مغيث الدين محمود بن محمد بن ملكشاه وقد عرف بسلطان العراق العجمي والعربي[٣٧] ، وقد بايع الاخير المسترشد وتوسم فيه خيرا ولكن الخليفة الجديد لم يكن كسابقيه من الخلفاء ، عقد العزم على اعادة هيبة الدولة والتقليل من نفوذ السلاجقة ، وقد كانت لحربه مع دبيس وقيادته الجيش بنفسه ومن ثم انتصاره البارع عليه صدىً عظيما لدى السلطان محمود الذي بدأ يتوجس في المسترشد شرا ويرى في نشاطه هذا خطرا على نفوذه . وقد بدأت اولى محاولات المسترشد في فرض سيطرته على السلطة السلجوقية عام ٥٢٠هـ عندما اختلف شحنة بغداد يرنقش الزكوي مع نواب الخليفة فتهدده الخليفة فخاف وقصد السلطان محمود وشكا اليه الامر وحذره جانب الخليفة واعلمه انه قاد العساكر ولقي الحروب واحرز الانتصارات وقويت نفسه وانه يترسم فيه مخاطر على نفوذ السلطنة السلجوقية[٣٨] ، واشار عليه بقصد العراق ودخول بغداد والا ازداد جمعا وقوة ، فاثر هذا في نفس السلطان وتوجه الى بغداد فارسل اليه الخليفة يعرفه بحال البلاد وما اصابها من ضعف ووهن واشتداد الغلاء وقلة الغلات والافوات لهرب الاكره (الفلاحين) عن اراضيهم الزراعية بسبب حرب دبيس[٣٩] ، وطلب منه ان يتأخر في المجيء الى وقت آخر حتى تصلح الاحوال وحاول اغرائه بالمال دون جدوى وشجعه في ذلك عمه سنجر[٤٠] ، ولما بلغ الخليفة ما عزم عليه السلطان وسيره فعلا اظهر الغضب والنزوح عن بغداد وشرع في عمل المضارب واعتداد السلاح وجمع العساكر

ونودي ببغداد بعبور الناس الى الجانب الغربي فاشتد الغلاء حتى بلغت اجرة الدار في الجانب الغربي ستة دنانير او خمسة وندرت الغلات وانهدمت بعض الدور بسبب هطول الامطار الغزيرة مدة ثلاثة أيام متتالية(٤١) . فلما علم السلطان ذلك بعث يرنقش الزكوي واسعد الطغرائي يطلب الصلح والاعتذار ، فقال لهما الخليفة « اقول له تأخر هذا العام وهو يعصي بيني وبينه السيف وتوجه الى يرنقش قائلا : انت السبب نفد حرضته واوغلت صدره »(٤٢) وهم بقتله فمنعه وزيره جلال الدين بن صدقة باعتبارهم رسل السلطان واكتفى بطردهم ، مما يعكس جانبا من قوة وهيبة المسترشد بالله وكبر ما صمم عليه .

وصل السلطان الى بغداد عام ٥٢١هـ ونزل بباب الشماسية ودخل بعض عسكره الى بغداد ونهبوا دار الخلافة فضج اهل بغداد وضربت البوقات ونادى المسترشد باعلى صوته ياللهاشم وعبر الى الجانب الشرقي ومعه ثلاثون الف مقاتل من أهل بغداد والسواد وامر بحفر الخنادق لحفظ بغداد من عسكر السلطان(٤٣) ، ولكن ظروفا قاهرة حالت دون مواصلة الحرب والدفاع عن بغداد ، فقد تدهورت الاحوال الاقتصادية وانحاز بعض اعوان الخليفة الى عسكر السلطان ، ازاء ذلك قرر الخليفة الصلح على ان يقوم السلطان بتقديم اعتذار عن كل ما حدث فتم له ذلك(٤٤) .

ومع كل ما اصاب المسترشد من قبول للصلح ونهب لدار الخلافة فان جانبه بقي مهابا ومركزه السياسي والديني موفورا ، فقد حدث « أن السلطان محمود مرض مرضا شديدا وعزم على الرجوع الى همدان ، ووسوس له قلبه من ان سبب ما جرى عليه من مرض هو لحربه الخليفة

المسترشد فامر بان يحمل في محفّة فحمل وحوله العساكر ومرّ على قصر الخلافة وبعث الى المسترشد يسأل مسامحته والدعاء له والرضى عنه والصفح عن ذنوبه ، فخرجت اليه الرسالة المسترشدية بالرضى والعفو عنه فطاب قلبه وقرت نفسه ومضى الى همدان »(٤٥) .

وبوفاة السلطان محمود عام ٥٢٥هـ احتدم النزاع بين الابناء والاعمام على السلطنة كل يريدها لنفسه الى ان استقرت لغياث الدنيا والدين ابي الفتح مسعود بن محمد بن ملكشاه .

لقد حاول المسترشد زرع بذور الشقاق والخلاف بين السلاطين السلاجقة بقصد اضعافهم واستنفاذ قواهم وبالتالي تحقيق خطته في التخلص منهم والاستقلال بالعراق وحدة متكاملة ، وتمشيا مع هذه الخطة عزم على فتح الموصل لما لها من أهمية ولكونها ملجأ اعداء الدولة كصاحبها عماد الدين زنكي ومن اتفقت مصالحه معهم كدبيس وحتى بعض سلاطين السلاجقة . ومما عجل في هذا المسير ما تعرض له رسول الخليفة الاسفرايني من اهانة على يد عماد الدين زنكي . سار المسترشد عام ٥٢٧هـ بجيش تعداده ثلاثين الفا من المقاتلين واثنا عشر الف فارس(٤٦) ، اخضع كل البلدان التي مر بها وهو في طريقه الى الموصل كالرملة والمزرفة وتكريت الى ان وصلها وحاصرها مدة ثمانين يوما دون جدوى الا ان الاخبار تواترت اليه بان مسعود قد انحدر الى بغداد فسارع عائدا اليها . ومع ان الحصار لم يحقق فتحا لقلاع الموصل الحصينة الا انه اظهر جانبا من قوة وسلطة الخليفة . كما انه اخضع مدنا وبلدانا في ذهابه وايابه وعين عليها من يثق بهم ، والحصار ايضا اضاف واثار بل وجدد مخاوف السلاجقة واعطى دليلا اخر يضاف

الى الادلة التي هم على علم بها من ان المسترشد طموح ينزع الى الاستقلال وينطلع الى سلطة عباسية مرهوبة الجانب على عكس اسلافه المتأخرين .

اقلقت تصرفات الخليفة وتحركاته وتزايد جنده السلطان مسعود الذي استتب الامر له نهائيا بعد موت طغرل[٤٧] ، فتردت علاقتهما ومما زاد الامر سوءا والعلاقة تباعدا والعهد نقضا هو التجاء جماعة من الاعيان والامراء الى الخليفة هربا من السلطان خوفا منه لانهم كانوا في خدمة سلفه طغرل .

سار السلطان بنحو الف وخمسمائة فارس وبعد ان صالح اصحاب الاطراف زاد جنده حتى بلغ خمسة عشر الف فارس ، في حين ان حوالي الفين من الاتراك الذين كانوا في عسكر الخليفة أنحازوا الى جيش السلطان فلم يبق مع الخليفة الا حوالي خمسة الاف فارس[٤٨] . وظاهرة التسلل هذه تكررت اكثر من مرة في حروب الخلفاء العباسيين ضد السلاجقة بتأثير الميل القومي للسلاجقة والولاء الظاهري للعباسين الذي كان عليه الجند الاتراك .

وفي دايمرج اقتتل الجمعان قتالا ضعيفا ودارت عساكر السلطان حول جند الخليفة الذي انهزم معظمهم واسر المسترشد بالله على باب المراغة[٤٩] ، ونهبت امواله التي كانت في صناديق محملة على سبعين بغلا والتي قدرت باربعة ملايين دينار ووضع الخليفة في خيمة مع نفر من اصحابه حتى مقتله[٥٠] .

مقتل المسترشد بالله

اصطلح الخليفة مع السلطان مسعود على مال يؤديه الخليفة والا يعود الى جمع الجيوش لمحاربته وان يعتكف في داره ولا يمارس اي

نشاط معاد للسلطة السلجوقية ولم يبق الا ان يعود الخليفة الى بغداد . ولكن وصول الأمير قزان حوان حاملا رسالة من السلطان سنجر الى السلطان مسعود[٥١] ، قد أخر ذلك وقد حمل الرسالة خمسمائةوعشرون راكبا ومما ورد فيها « ساعة وقوف الولد العزيز غياث الدنيا والدين مسعود على هذا الكتاب يدخل على امير المؤمنين اعز الله انصاره ويقبل الارض بين يديه ويقف ويسأله العفو عنه والصفح عن جرمه واقدامه ويتنصل غاية التنصل فانه قد ظهرت عندنا من الاثار السمائية والارضية ما لاطاقة لنا بسماع مثلها دون المشاهدة من الرياح والعواصف والبروق وتزلزل الارض ودوام ذلك عشرين يوما ...... الى ان قال فالله الله ان تتلاف امرك وتحقن دم المسلمين وتعيد امير المؤمنين الى مستقر عزه وسلم اليه دبيسا ليرى فيه رأيه ....»[٥٢] ، فاجاب السلطان على ذلك وارسل الى دبيس وجيء به مكتوف بين اربعة امراء يحيطون به من الجانبين ومع احدهما سيف مجذوب وبيد الاخر شقة بيضاء ، فقال مسعود يا امير المؤمنين هذا هو السبب الموجب لما جرى بيننا فاذا زال السبب زال الخلاف وهو الان بين يديك ودبيس يتضرع ويبكي ويقول العفو عند المقدرة فقال الخليفة لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وتقدم بحل كتاف دبيس الذي سمح له بتقبيل يد الخليفة وتضرع اليه بالعفو دعفى عنه .

وبينما السلطان والناس منشغلون برسول سنجر دخل جماعة[٥٣] من الباطنيه على الخليفة وهو في خيمته وضربوه بالسكاكين عشرين ضربه ومثلوا به فجذعوا انفه واذنيه وتركوه عريانا وقتل معه نفر من اصحابه[٥٤] ، وكان مقتله يوم الخميس سابع عشر ذي القعدة عام تسع

وعشرين وخمسمائة[٥٥] ، عن عمر بلغ ثلاث واربعين سنة وثلاثة اشهر ، وكانت خلافته سبعة عشر سنة وستة اشهر وعشرين يوما ، ودفن في مراغة[٥٦] .

ولما وصل الخبر بغداد اجتمع الراشد وحوله اخوانه واقاربه والناس يعزونه ويبايعونه وفي الصباح خرج الرجال من العامة حفاة فعمدوا الى المنبر وكسروه ومنعوا الخطبة عليه وقاتلوا اصحاب الشحنة انتقاما لخليفتهم وخرجت النساء منشرات الشعور ويلطمن وينظمن الاشعار ويقلن[٥٧] :

يا صاحب القضيب ونور الخاتم
صار الحريم بعد قتلك مأتم
اهتزت الدنيا ومن عليها
بعد النبي ومن ولي عليها
قد صاحت البوم على السرادق
يا سيدي ذا كان في السوابق
ترى تراك العين في حريمك
والطرحة السودا على كريمك

بموت المسترشد بالله ساءت سمعة السلطان مسعود واشارت اليه اصابع الاتهام بتدبير هذه المؤمرة سرا وبعلم عمه السلطان سنجر الذي قيل بانه هو الذي ارسل جماعة قيل انهم من الباطنية مع من كان مع رسوله ، ولكي ينفي مسعود التهمة التي لحقت به نسب مقتل الخليفة الى دبيس بن صدقة واشاع ذلك بين الناس وبالفعل ارسل على دبيس وقتله[٥٨] ، ولكن ذلك لم يجد نفعا فاجماع الناس لا يبرأه وقرائن

الاحوال تظهران السلطان ضاق ذرعا بمطامع الخليفة ونوازعه الاستقلالية ومن الصعب قتله ظاهريا ، فعمد الى من سخرهم لقتله سرا • ومما يعزز هذا الرأي ماجاء في رسالةالراشد الى رسول السلطان مسعود عام ٥٢٩هـ الذي جاء مطالبا بالمال الذي استحق على المسترشد بالله في اواخر أيامه : قوله « اما وقد قتل المسترشد بالله بتدبيركم ••••• »(٥٩) •

والخلاصة

ان كبر ما فكر به المسترشد بالله وهول ما صمم عليه وما اكتنف ذلك من مراوغات الداهية دبيس بن صدقة وعماد الدين زنكي وخروج أخيه ابي الحسن وقوة السلاطين السلاجقة واتفاق رأيهم تارة وتمزق شملهم تارة اخرى ، خلقت فيه الشجاعة والجرأة والسياسة والتردد في بعض المواقف وهو في مجتمع منقسم دينيا وسياسيا واجتماعيا ، وبين قوم يتحينون الفرص ، يتطلع كل منهم لقهر صاحبه واحتلال مقعده ، اثقلته تركة اسلافه من الخلفاء الذين سايروا السلطة السلجوقية قلبا وقالبا ، وجعلت من دعوته في الاستقلال خروج غير متوقع ونزوع طائش لدى سلاطين السلاجقة وخطر يحدق بهم •

ولذلك فمن غير العدل ان يوصف المسترشد بعدم الروية والتسرع دون معرفة الظروف والاحوال التي احاطت به وهذا ما اردت ان انبه اليه•

حقا ان المسترشد بالله اراد شيئا وشاءت الاقدار غير ذلك اراد ان يعيد مجد وهيبة ابائه من الخلفاء الاوائل واقتنع بانه لايمكن تحقيق ذلك الا بالتخلص من نفوذ السلاجقة فعمد الى انشاء الجيش وقاده بنفسه ، والى اخضاع الامارات القريبة من حاضرة الدولة كالحلة وواسط والموصل وخاض اكثر من حرب مع امراءها تارة ومع السلاطين

السلجوقيين تارة أخرى • ومع ان المسترشد بالله لم يوفق في تحقيق مطمحه في الاستقلال الا انه يمكن القول انه بدأ هذه المحاولات وكان في ذلك جريئا الى حد المغامرة وقطع فيها شوطا وهيأ الرأي العام للمطالبة بابعاد نفوذ السلاجقة ومنعهم من التدخل في شؤون الدولة العباسية •

ومع كل ما اصاب الناس في زمانه من ضنك في العيش وفداحة في الضرائب وجبايتها ، فان حبهم وطاعتهم له كانا كبيرين لانهم وجدوا فيه منقذا ومخلصا لهم من السلاجقة وسيطرتهم وتدخلاتهم اذ لولاهم لما ساءت احوال الدولة الاقتصادية ولما فرضت الضرائب ولما ارتبك الامن ولما ضاعت هيبة الخلافة وهو دليل فهم ووعي لحركة المسترشد التي تنشد الاستقلال والتحرر من السيطرة الاجنبية •

الهــــوامش :

١ ـ ابن الاثير «الكامل في التاريخ» مطبعة ليدن ١٨٩٧م حـ١٠ ص٢٠١

٢ ـ السيوطي «تاريخ الخلفاء» الطبعة الثالثة ، مطبعة المدني ١٩٦٤ ص٤٣١ وابن الجوزي «المنتظم في تاريخ الملوك والامم» دائرة المعارف الثمانية ، حيدر اباد ١٣٥٩ هـ حـ٩ . ص١٩٧ .

٣ ـ الكامل : حـ١٠ ص٢٠١ .

٤ ـ نفس المصدر السابق : ص٢٠٢ .
وابن خلدون «العبر وديوان المبتدأ والخبر» المجلد الثالث ، القسم الخامس ، المطبعة الباسلية سنة ١٩٥٧ . حـ٣ ص١٠٢٤ .

٥ ـ تاريخ لخلفاء ص٤٣٢ .

٦ ـ المصدر السابق نفسه .

٧ ـ الكامل حـ١١ . ص١١ .

٨ ـ تاريخ الخلفاء ص٤٣٥ .

٩ ـ نفس المصدر السابق .

١٠ـ نفس المصدر ص٤٣٢ .

١١ـ نفس المصدر ص٤٣٣ .

١٢ـ ابي شامة « الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية » مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القسم الاول ١٩٥٦ حـ١ ص٨٠ .

١٣ـ تاريخ الخلفاء ص٤٣١ .

١٤ـ المنتظم حـ١٠ ، ص٣٠ .

١٥ـ الكامل حـ١٠ ، ص٢٠١ . ايضا الروضتين حـ١ . ص٧٩ .
وفي العبر : حـ٣ . ص١٠٢٣ ، ان وفاته كانت « في منتصف ربيع الاخر » اما ابن القلانسي : « ذيل تاريخ دمشق » مطبعة اليسوعين ببيروت ، ص٢٠٠ ، فقد ذكر ان وفاته في « الرابع عشر من شهر ربيع الاخر » .
ذكر العماد الاصفهاني « تاريخ دولة آل سلجوق » مطبعة الموسوعات بمصر ١٩٠٠ ص١٠٩ : ان المسترشد هو الذي صلى على ابيه بحضور اخوانه وابناء عمومته وكبار رجالاته .

١٦ـ الكامل : حـ١٠ ، ص٢٠٢ .

١٧ـ المنتظم حـ٩ ، ص١٩٧ .
١٨ـ الروضتين : حـ١ ص٧٩ .
١٩ـ المنتظم حـ٩ ، ص١٩٨ .
٢٠ـ ابن طباطبا « تاريخ الدولة الاسلامية » دار صادر ببيروت ص٣٠٢ ايضا عبدالجبار ناجي « الامارة المزيدية في الحلة » رسالة ماجستير ١٩٦٥ ص٨٩ .
٢١ـ الكامل : حـ١٠ ، ص٢٠٢ .
٢٢ـ الكامل : حـ١٠ ، ص٢٠٣ .
٢٣ـ المنتظم : حـ٩ ، ص٢٠٥ .
٢٤ـ الامارة المزيدية ص٣ ، ص٥٤ .
٢٥ـ ابن كثير « البداية والنهاية في التاريخ » ط١ بمصر ١٩٦٦ حـ١١، ص١٨٢ .
٢٦ـ الكامل حـ١٠ ، ص٢١٤ .
٢٧ـ العبر حـ٣ ، ص١٠٣٧ .
٢٨ـ الامارة المزيدية ص٨٤ ، ص٩٣ .
٢٩ـ العبر حـ٣ ، ص١٠٢٦ وقد ذكر عن معنى الشحنة « انها الامير او رئيس الشرطة او بمعنى الحامية وهي اعلى وظيفة سلجوقية في الدولة العباسية وصاحبها ممثل للسلطان في البلد » .
٣٠ـ الكامل حـ١٠ ص٢٣١ .
٣١ـ الكامل حـ١٠ ، ص٢٣٢ .
٣٢ـ المنتظم حـ٩ ص٢٤٥ .
٣٣ـ الكامل حـ١٠ ص٢٥٤ .
٣٤ـ ابن العديم « زبدة الحلب في تاريخ حلب » المعهد الفرنسي بدمشق ١٩٥١ حـ٢ . ص٢٥١ .
٣٥ـ المصدر اعلاه ص٢٥٠ .
٣٦ـ احمد شلبي « التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية » ط٤ مطبعة لجنة التاليف والترجمة ١٩٦٣ حـ٤ . ص٥٧ .
٣٧ـ ابي الفوارس « اخبار الدولة السلجوقية » تصحيح محمد اقبال لاهور ١٩٣٣ ص٩٦ .
ايضا دائرة المعارف الاسلامية المجلد الثاني عشر «السلاجقة» ص٣٠
٣٨ـ الكامل حـ١٠ ، ص٢٤٢ .
٣٩ـ العبر حـ ٣ ، ص١٠٤٣ .

٤٠ـ المنتظم حـ٩ ، ص٢٥٥ .
٤١ـ المصدر السابق نفسه .
٤٢ـ المصدر السابق نفسه .
٤٣ـ الكامل حـ١٠ ، ص٢٤٣ .
٤٤ـ اخبار الدولة السلجوقية ص٩٨ .
٤٦ـ ابن الاثير « التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية » دار الكتب الحديثة ١٩٦٣ ص٤٧ .
٤٧ـ دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد الثاني عشر . كلمة السلاجقة ص٣٠ .
٤٨ـ الكامل حـ١١ ص١٠ .
٤٩ـ المنتظم حـ١٠ ص٤٥ .
٥٠ـ دولة آل سلجوق ص١٦٣ .
٥٢ـ المنتظم حـ١٠ ص٤٨ .
٥١ـ نفس المصدر السابق .
٥٢ـ المنتظم حـ١٠ ص٤٨ .
٥٣ـ دولة آل سلجوق ص١٦٣ . ورد في الكامل حـ١١ ، ص١١ : ان عدد هذه الجماعة (٢٤) وفي المنتظم حـ١٠ ، ص٥٠ : ان عددهم سبعة عشر . وفي ذيل تاريخ دمشق ص٢٤٩ انهم اربعة عشر .
٥٤ـ الكامل حـ١١ ، ص١١ .
٥٥ـ ورد هذا التاريخ وهو الراجح في الكامل والمنتظم في حين ان الاصفهاني في كتابه دولة آل سلجوق ذكره في ثمان عشرة ذي القعدة ص١٦٣ .
وفي اخبار الدولة السلجوقية ذكر انه في يوم الاحد رابع شهر ذي الحجة ، وفي تاريخ الخلفاء ص٤٣٢ : يوم الخميس سادس عشر ذي القعدة ولكن الاتفاق تام على سنة وفاته وهي تسع وعشرين وخمسمائة .
٥٦ـ تاريخ الخلفاء ص٣٠٣ . وفي المنتظم حـ٩ ، ص١٩٧ : ان عمره كان ثلاثا واربعين سنة وثلاثة اشهر وثمانية ايام ومدة خلافته سبع عشرة سنة وسبعة اشهر .
٥٧ـ المنتظم حـ١٠ ص٥١ .
٥٨ـ اخبار الدولة السلجوقية ص١٠٧ .
٥٩ـ المنتظم حـ١٠ ، ص٥٤ .